نشأة الإنسان وتكوينه
في الميزان الإسلامي والتصور الداروينى

دكتور
مصطفى أحمد أبو سماك
أستاذ مساعد بقسم الدعوة
بكلية أصول الدين بالقاهرة

تقديم :

لاشك أن الإنسان لبنة البناء فى كل مجتمع وحجر الزاوية فى أية أمة ولذا كان من الضرورى أن نقف وقفة حول ما يتعلق بهذه اللبنة من قضايا ، طمعا فى الوصول إلى حقيقتها وتطلعا إلى القول الفصل فى أمرها وشأنها .

وأود بادىء ذى بدء أن أنبه على أمرين اثنين :

الأمر الأول : اشتمال بحثى الذى أعده على دراسة النقاط الآتية :

١ — نشأة الإنسان .

٢ — تكوينه .

٣ — علاقة التطور بالنشأة الإنسانية وتكوين الإنسان .

٤ — حقيقة التطور وموقف الإسلام منه .

الأمر الثانى : قيام دراستى للنقاط المذكورة على منهج المقارنة ، والتى سألتزم فيها — من جانب بعقيدة الإسلام الذى تكفل الله تعالى بحفظ كتابه ، وجعله — فى نفس الوقت — مصدقاً ومتمما ومهيمنا على الكتب الإلهية ، قال تعالى « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه »[1] .

ومن جانب آخر ، سألتزم فى دراستى هنا ، بعرض ماتضمنته دعوى التطور الداروينى ، إذ هى أهم مصدر لدعم المذاهب الوضعية المادية المتعددة ، يقول اسماعيل مظهر . . مترجم كتاب « أصل الأنواع » عن

---

(١) سورة المائدة : ٤٨

مؤلفه دارون ، هو أكبر عالم جاد به القرن التاسع عشر ، نهض بعلم الحياة والحيوان ووضع النظريات الحديثة التى بنى عليها العلماء مبادئهم فى علوم الاجتماع والنفس والحيوان والنبات »[1] .

وأرى من الأهمية بمكان ، أن نبدأ فنلقى الضوء على شأن الإنسان فى الإسلام ، وهو شأن يزداد ضوءه بريقاً إن قابلته دراسة مقارنة ، تبين ماهية الإنسان نفسه فى التصور الداروينى ، إذ الأمر كما قيل: بضدها تتميز الأشياء .

هذا ولأشرع بتوفيق الله تعالى فى تفصيل ما أجملت ، وبيان ما أسلفت على ضوء ماقدمت من تمهيد .

١ — نشأة الإنسان فى ميزان الإسلام

تؤكد نصوص الإسلام — وهى بصدد تقرير الحقائق المتعلقة بنشأة الإنسان — أنه كائن يتساوى مع غيره من الكائنات فى مخلوقيته لخالق كل شىء فى الوجود كله ، ويتساوى مع غيره من المخلوقات فى استقلال النشأة ، واختصاص نوعه بهذا الاستقلال منذ وجوده ، حتى نهاية أمره .

فالإنسان — فى ميزان الإسلام — لم يخلق نفسه بنفسه ، ولم تخلقه العناصر التى ركب منها ، وإنما خلقه الله الذى خلق الأشياء كلها ، قال تعالى : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »[2] ، وقال تعالى : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل »[3] .

---

(١) أصل الأنواع حـ ١ ص ٢٠

(٢) سورة البقرة : ٢١ (٣) سورة الأنعام ١٠٢

والإنسان — فى ميزان الإسلام — لم يتخلق تخلقا ذاتيا من أنواع أخرى سبقته ، ولم يكن وجوده نتيجة إنتقاء طبيعى حدث بين أفراد نوع من أنواع المخلوقات ، وإنما كان خلقه مستقلا فى نوعه ، مختصا بجنسه ، قال تعالى « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون »(١) .

وحول نشأة الإنسان يقرر الإسلام أيضا ، أن آحاد الجنس البشرى — ذكوراً وإناثا — ينتمون إلى الإنسان الأول .. آدم عليه السلام .. والمعبر عنه بالنفس الواحدة فى قوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحـــدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »(٢) .

أقول : إن الباحث يوسعه أن يقرر — فى ضوء ما ذكر من نصوص القرآن الكريم — أن آدم عليه السلام هو بدء ظهور البشرية ، ورأس وجود الإنسانية القائمة .. خلقه الله من العدم ، وأنشأه على غير مثال سبق .. بل يوسع الباحث فى هذا المقام ، أن يقرر أيضا : أن آدم عليه السلام أول من اختص بهذا الاسم ، الذى صار منذ إعلان الله تعالى به ، شارة نوع للإنسان وعلامة جنس له ، و (ماركه مسجلة) خاصة به .. الأمر الذى يؤكد فى الأذهان ، ويرسخ استقلال نشأة الإنسان عن غيره من الكائنات السابقة عليه فى الوجود ، وما تحتوى عليه من أجناس شتى .

ولذلك لا يفوتنى هنا أن أسارع ، لأبين الخطأ الفكرى الذى وقع — تجاه قضية نشأة الإنسان — من أحد(٣) المفكرين المسلمين المساهمين

---

(١) سورة ياسين : ٣٦ (٢) سورة النساء : ١

(٣) هـــذا المفكر هو / مصطفى محمود الذى يشارك فى جهاز =

بجهد إعلامى معاصر واضح ، وذلك حين يقول فى برنامجه المسمى بالعلم والإيمان : ليس ما يرجح استقلال نشأة الإنسان ، على تبعيته فى النشأة لمخلوق آخر سابق عليه لأن الله تعالى يقول « مالكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً »[1] .

ثم يردد المفكر الإعلامى : كلمة « أطواراً » بطريقة توحى للمشاهد المستمع بأن قضية نشأة الإنسان ، ظنية الدلالة ، فهى تحتمل التبعيـــة للكائنات السابقة ، كما تحتمل الاستقلال عن هذه الكائنات .

وأرى أن تصحيح مثل هذا الخطأ الفكرى القائم على الظن فى استقلال نشأة الإنسان ، يتحقق أولا : باستحضار الآيات القرآنية التى أوردتها فى تقرير الإسلام حول نشأة الإنسان ، ويتحقق ثانيا : بإلقاء الضوء التفسيرى على التعبير القرآنى من الآية الكريمة « وقد خلقكم أطوارا » ، ولعل الإكتفاء — فى هذا المجال — يتحقق فى الاستئناس بتفسير الإمام القرطبى ، للآية الكريمة من سورة نوح ، وذلك حين يقول (« وقد خلقكم أطواراً » أى جعل لكم فى أنفسكم آية تدل على توحيده .

قال ابن عباس : « أطواراً » يعنى نطفة ثم علقة ثم مضغة ، أى طورا بعد طور إلى تمام الخلق ، كما ذكر فى سورة المؤمنون... وقيل : « أطوارا » صبياناً ، ثم شبابا ، ثم شيوخا ، وضعفاء ثم أقوياء . وقيل : « أطوارا » أى أنواعاً ، صحيحاً وسقيما ، وبصيراً وضريراً ، وغنيا وفقيراً وقيل : إن أطوارا : اختلافهم فى الأخلاق والأفعال)[2] .

= « التلفاز » برنامج علمى ، له تأثير كبير وذيوع واسع الآفاق ، ويعرف باسم : العلم والإيمان .

(١) سورة نوح : ١٣ ، ١٤ (٢) تفسير القرطبى صـ ٦٧٨٢

ولنا أن نستنبط من تفسير الإمام القرطبي ، ومن الأقوال المناظرة لعدد آخر من أئمة التفسير أن كلمة [أطوار] في سورة نوح ، لا تتعلق — يقيناً — بمراحل رئيسية تعنى تحول الكائنات من نوع إلى نوع آخر وتطور الإنسان — في بدء ظهوره — من كائن حي سابق عليه في الوجود .. وإنما تتعلق كلمة « أطوارا » بمراحل فرعية خاصة بنوع البشر وجنس الآدميين مع ضرورة أن نضع في اعتبارنا اختلاف صور المراحل الفرعية من آدم عليه السلام إلى أبنائه وأفراد ذريته .

فآدم عليه السلام تفرد بمراحل فرعية خاصة به ، تتمثل في : مرحلة التراب ، فمرحلة الطين ، فالحمأ المسنون ، فالصلصال ، فمرحلة التسوية ، فمرحلة النفخ من روح الله تعالى .. ونستطيع أن نتبين هذه المراحل المذكورة من الآيات القرآنية الكريمة الآتية :

قال تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[1] .

وقال تعالى « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين »[2] .

وقال تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين »[3] .

أقول : هذا ما يتعلق بالمراحل الفرعية لخلق آدم عليه السلام ، أما

---

(١) سورة آل عمران : ٥٩

(٢) سورة المؤمنون : ١٢

(٣) سورة الحجر : ٢٨ ، ٢٩

أبناؤه فتفردوا بمراحل فرعية خاصة بهم ، فى فترة الحياة الجنينية داخل بطون الأمهات ، وفى فترة الحياة الخارجية على وجه الأرض .

فى الحياة الجنينية نجد المراحل الفرعية لأبناء آدم تتمثل فى : مرحلة النطفة ، فمرحلة العلقة فالمضغة ، فالهيكل العظمى ، فكسوة العظام باللحم ثم إنشاء الجنين خلقاً آخر بالتسوية والنفخ من روح الله فيه ... ونستطيع أن نتبين هذه المراحل المذكورة حين يقول الله تعالى فى شأن كل فرد من أبناء آدم وذريته « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »[1] .

وغنى عن البيان أن السنة النبوية الشريفة أكدت أبرز المراحل المذكورة فى سورة المؤمنون وذلك حين يقول رسول الله ﷺ « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد »[2] .

وبعد إنتهاء الحياة الجنينية ، وخروج أبناء آدم عليه السلام إلى الحياة الخارجية على وجه الأرض ، تكون لهم أطوار جديدة ، هى بمثابة مراحل فرعية أخرى ، وتتمثل فى أن يعيش الإنسان فترة زمنية — طفلا رضيعاً ، ثم يكون صبيا صغيراً ، ثم يصير شاباً يافعاً ، ثم رجلا ناضجا ، ثم كهلا شائخاً فى نهاية عهده بالدنيا .. يحمل لنا القرآن الكريم الحديث

---

(١) سورة المؤمنون : ١٣ ، ١٤

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٦ صـ١٩٠ ، ورواه الإمام البخارى بلفظ آخر فى كتاب بدء الخلق جـ ٤ صـ ١٣٥ المجلد الثانى .

عن هذه المراحل فى قوله تعالى « الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعدقوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير »[1] .

ولا يغيب عن الذهن أن هذه المراحل الداخلية والخارجية للإنسان هى بمثابة أطوار تتعلق بنوع واحد من الكائنات ، وليست تطوراً بمعنى الانتقال من نوع إلى آخر من الكائنات ، الأمر الذى يجعلنا نقرر : أن كلمة « أطوارا » المذكورة فى سورة نوح لاتنال من حقيقة استقلال نشأة الانسان عن غيره من الكائنات السابقة وما تحتوى عليه من أجناس شتى .

وأتصور أن حقيقة استقلال النشأة الانسانية ، تزداد وضوحا ، إذا تذكرنا استقلال أفراد الإنسانية فى السيادة على كل ما سخره الله تعالى لها ، مما فى السموات والارض ، وإنها لسيادة[2] تشير إلى أن نشأة الإنسان كما هى مستقلة عن الكائنات السابقة عليه فى الوجود ، هى نشأة مستقلة أيضا ، عن بقيـــة الكائنات بالسيادة الممنوحة من الله تعالى للإنسانية ، فى صورة التسخير المنصوص عليه فى القرآن الكريم .. قال تعالى « وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[3] .

---

(١) سورة الروم : ٥٤

(٢) يجب أن تلفت الأنظار إلى أن السيادة التى ينفرد بها أفراد الإنسانية ، ليست سيادة مطلقة وإنما هى سيادة تقابل بعبودية قد المانح هذه السيادة . قال تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » سورة الذاريات : ٥٦

(٣) سورة الجاثية : ١٣

ثم تزداد حقيقة إستقلال نشأة الإنسان وضوحا ، إذا تذكرنا تفرد أفراد الإنسانية بأخذ العهد الإلهى عليها . وهى قائمة فى عالم الذر الغيبى السحيق ، قبل أن تظهر إلى العالم المشهود وإقرار كل نسمة بشرية ستوجد إلى يوم القيامة ، بوحدانية الله فى الألوهية وفى الربوبية ، وذلك مصداقا لقوله تعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين »[1] .

أقول : لعل هذا التفرد الإنسانى بأخذ العهد الإلهى المذكور يشير — فى إضافة واضحة إلى إستقلال نشأة الإنسان عن بقية الكائنات .

وأكتفى بهذا القدر من الإشارات والقرائن المتعلقة بتفرد الإنسانية وإستقلالها ، إكتفاء أشفعه باكتفاء الحديث عن قضية نشأة الإنسان فى ميزان الإسلام .

ولأنتقل الآن إلى قضية تكوين الانسان

تكوين الإنسان فى ميزان الإسلام :

ليس من السهل على الباحث ، أن يقيم فاصلا بين تناوله نشأة الإنسان وتكوينه ، إذ هما شيئان كل واحد منهما مقترن بالآخر ومتصل به إتصالا وثيقا ، ولذلك فالآيات القرآنية الكريمة التى استشهدت بها ، والتى أشرت فى الهوامش إلى مواطنها ، فى قضية النشأة ، أراها تشير — فى الوقت نفسه — إلى قضية التكوين الخلقى للإنسان .

ومن هنا أستطيع أن أقرر : أن الإنسان مكون من هيئة مزدوجة

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢ ، ثم أنظر كتاب المرحوم سيد قطب (فى ظلال القرآن) مجلد ٣ صـ١٣٩٢

التركيب ، إحداهما تنسب إلى عالم المادة ، والأخرى تنسب إلى عالم الروح ، وهما عالمان مختلفان ويمتزجان فى وقت واحد[1] ، والإمتزاج العالم المادى بالعالم الروحى فى الإنسان يسرى فى كيانه كله ، بحيث لا ينفصل أحدهما عن الآخر ولا يتحيز عنه فى جهة ، وهذا ما جعل بعض علماء الإسلام . يقول فى التعريف بالإنسان « إنه مزاج متخلق من توازع الفطرة والغريزة . متولد من حوافز العقل والطاقة والجسم والروح »[2].

أى أن الإنسان فى حقيقة تكوينه — وحدة من تركيب مزدوج لجواهر معنوية روحية ، وأعراض حسية جسمانية، ووحدة الإنسان هذه تؤهله لحمل رسالته وتحقيقها ، بعد أن ميزته بشريته المقصورة عليه من بين سائر المخلوقات ، وتفرد كيانه على غيره من الكائنات .

هذا وأعتقد أن وجود الازدواج وأصالة الامتزاج فى كيان الإنسان ، يزداد وضوحا بما يقرره الإسلام فى إستعداد الإنسان المزدوج والمهيأ للارتفاع والسمو ، وللهبوط والدنو ، ذلك أن الله تعالى خلق النفس الإنسانية ، وأقدرها على إقتراف المعصية التى تهلكها ، وعلى فعل الخير الذى ينجيها ويقيها من سوء المصير ، وإن كانت نشأة الإنسان قد فطرت على الإيمان ، وما يناسبه من سمو وإرتفاع ، ولعل هذا بعض ما يفهم من تقديم صورة الفلاح على صورة الخسران ، فى قوله تعالى « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها . وقد خاب

---

(١) راجع رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٤١، وراجع دراسات فى النفس الإنسانية ص ٤١ — ٤٤

(٢) دلائل النبوة للبيهقى جـ١ ص ٥ من تقديم المحقق الشيخ عبدالرحمن محمد عثمان

من دساها [١]... أيضاً ولعل هذا بعض ما يستفاد من تقديم حالة الشكر على حالة الكفر فى الذكر والترتيب ، وذلك حين يقول الله تعالى عن الإنسان « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً »[٢] .

وتكتمل قضية تكوين الإنسان فى ميزان الإسلام ، حين نلفت النظر العقلى ، إلى أن الجانب الروحى من التركيب المزدوج للإنسان ، لا يضفى عليه صفة الحياة المجردة والممنوحة لكل كائن حى ، وإنما يضيف إليه شيئاً زائداً على سريان الحياة فى البدن ، الأمر الذى يجعل الإنسان ذا خصائص معينة ، ويتفرد بها ويتميز ، وهذا ما يرشد إليه القرآن الكريم ، إذ لم يرد فيه النفخ من روح الله إلا مقصوراً على الإنسان وحده [٣] .

ولعل هذا الأمر جعل بعض المفكرين يقررون أن عالم الروح أو الحياة فى الإنسان تزيد آفاقه عن مجرد الحياة الحيوانية . يقول الأستاذ البهى الخولى — رحمه الله — « ونحن نستبعد أن يكون المراد بنفخ هذا الروح هو إجراء الحياة الحيوانية فى بدن آدم عليه السلام وذلك لعدة أمور أبرزها ، أن النفخ فى آدم عليه السلام ولو كان المقصود به إجراء الحياة المجردة فحسب ، لما أعتبر خصوصية ترشحه لمقام التكريم الالهى ، حين تسجد له الملائكة سجود تحية ومؤانسة وتكريم لا سجود عبادة وتقديس [٤] .

---

(١) سورة الشمس ٧ — ١٠

(٢) سورة الإنسان ٣

(٣) راجع الآيات الكريمة الواردة فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد عبد الباقى عدد ٧ ص ٧٠٩

(٤) كتاب آدم عليه السلام ص ٢٣ بتصرف

ويبين الأستاذ محمد قطب تصوره لبعض الخصائص التى يشتمل عليها عالم الروح فى الإنسان ، فيقول « إنه بالنفخة الإلهية التى تشتمل عليها روحه قد صار مدركا لنفسه وما حوله ... إمريداً لما يقوم به من أعمال وتصرفات ... وبهاتين الصفتين تختلف كل أعمال الإنسان عن أعمال الكائنات ، فى أنها أعمال واعية يدرك الإنسان غايتها وأهدافها ، وأنها أعمال إرادية يريدها الإنسان ويقصدها »(١) .

وبقليل من التأمل للقارن بين أعمال الإنسان وأعمال الحيوان ، ندرك بسهولة ويسر أن الوعى والإرادة عاملان يحكمان كافة تصرفات الإنسان ، ولا شأن لهما — فى الوقت نفسه — بتصرف الحيوانات . صحيح أن الحيوانات لهـا أدمغة وحواس ، لكنها أجهزة مفتقدة للوعى والإدراك ، لأن كل ما لديها لا يعدو أن يكون مجرد إنطباعات عن الواقع وغرائز تهديها فى كل تصرفاتها إلى ما ينفعها فتقبل عليه ، وإلى ما يضرها أو مالا ينفعها فتبتعد عنه ... وصحيح أيضاً أن من الحيوانات ما يعمل وينتج ، لكن عملها وإنتاجها مفتقد للإرادة والقصد ، فالبقرة حين يدر ضرعها باللبن ، تنتج بلا إرادة ، والشاة حين تنتج لنا الصوف فهى غير مختارة ، بل إن افتقاد الحيوانات للإرادة والاختيار ، يجعلها غير قادرة على ضبط غرائزها التى لا يحكمها إلا الشبع وحسب .

وبد هى أن تكون تصرفات الإنسان السوى مخالفة تماما لتصرفات الحيوان ، ذلك أن الإنسان يعى ويدرك أبعاد كل تصرفاته ، ويعمل عادة وينتج بإرادة وقصد منه واختيار ، بل يستطيع الإنسان بإرادته أن أن يضبط غرائزه وينظمها ، فغريزة الجوع يضبطها الإنسان بالصيام ،

---

(١) دراسات فى النفس الإنسانية ص٢١٤

وغريزة الشهوة يضبطها فيقضيها مع زوجته وفى سرية تامة ، مع مشروعية قضائها وإتيانها ، ولذلك يحق لنا أن نقول فى شأن غير الأسوياء من البشر، ممن تسوقهم شهواتهم بلا إرادة منهم ، وبغير التزام بضوابط الشرع الحنيف .

نقول : إن أمثال هؤلاء ملحقون بعالم البهائم ، ولو بدوا فى شكل آدميين ، لأن من الفروق الجوهرية بين الإنسان والحيوان ، أن الإنسان كائن حى مريد ، وأما الحيوان فهو كائن حى مسوق !

صفوة القول فى نشأة الإنسان وتكوينه فى ميزان الإسلام .

على ضوء ماتقدم ، يحق لى أن أقرر : أن الإنسان مخلوق متفرد على غيره من المخلوقات فى نشأته وتكوينه ، وحسبه من تفرده هذا أن يكون بشراً فهو ليس إلهاً أو شبيهاً به وإن خلقه الله تعالى بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله سيداً فى هذا الكون ، ثم هو ليس ملكا ، وإن تقاسم العالم الروحى كيانه ، وكان فى العالم العلوى نشأته ... ثم هو ليس حيوانا وإن تقاسم معه الحياة الظاهرة . وشابهه فى قضاء بعض حوائجه البدنية

إن الإنسان — فى نشأته وتكوينه — بشر مخلوق لله سبحانه كبقية الكائنات مفطور على الإيمان بالله مثلها . . مستقل النشأة عنها : ثم هو كائن مزدوج التركيب موحد الاتجاه . اتجاه النفس فطريا إلى الله وخاصة حين تقع النفس فى ضيق شديد أو تشعر بخطر ثقيل ، ثم إن الإنسان كائن مختص بتكريم الله سبحانه

ويطيب لى أن أختم حديثى عن قضية نشأة الإنسان وتكوينه فى ميزان الإسلام ، بقول الشهيد / سيد قطب ، تسجيلا لأبرز الحقائق المتعلقة بالقضيتين المذكورتين ، والحقائق المستلهمة من قصة النشأة الإنسانية :

هى كرامة هذا الكائن الفريد فى العوالم الحية ، وضخامة دوره المنوط به ، وسعة الآفاق التى يتحرك فيها وتنوع العوالم التى يتعامل معها — فى حدود عبوديته لله وحده — مما يتناقض تماماً مع المذاهب الحسية المادية التى تهدر قيمته كعامل أساسى مؤثر فى الكون ، حيث تسند الأهمية كلها للمادة وتأثيراتها الحتمية .(١)

وهذا ما أحاول تبيينه الآن بتوفيق الله تعالى .

الإنسان فى تصور المذاهب المادية

فى مجال العلوم الإنسانية يجد القارىء لأبحاث العلماء المسلمين ، فريقا يقف فى تتبعه لنشأة المذاهب المادية عند عصور الاغريقيين ، أى عصور ماقبل التاريخ المسيحى بقرون خمسة وكفى .

وكان على هذا الفريق من العلماء أن يصل فى أبحاثه إلى المصدر الأول والمنبع الأساسى لهذه المذاهب المادية ، وهو مصـــدر يرجع إلى بداية الخليقة متمثلا ذلك فى إبليس لعنه الله ، وهاهى آيات القرآن الكريم تساعدنى فى تدعيم إضافتى هذه ، حين تقص على لسان إبليس جوهر المذهب المادى ، وأساسه القائم على أمرين اثنين :

الأمر الأول : التمسك بالرأى الشخصى فى مقابلة النص الإلهى ، ويتجلى ذلك فى المخالفة لأمر الله بالسجود لآدم عليه السلام ، والإصرار على هذه المخالفة .

الأمر الثانى : إعلان شأن المادة باتخاذها مقياسا للتفاضل والاعتزاز

---

(١) فى ظلال القرآن مجلد ٣ صـ ١٢٧٢ باختصار

وهو مقيـــاس يقوم على خصائص خارجة عن الإرادة وقاهرة للكيان والذات ، إذ لا اختيار لأحد فيما اشتملت عليه ذاته من عناصر .

ويجتمع الأمران المذكوران في قوله تعالى «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»(١)

ومن هدى الآيتين الكريمتين يقول د/محمد البهي «كانت نظرة إبليس هي نظرة مادية بحتة ، فهو لم ينظر في خلق الإنسان إلى القوى الروحية فيه . إلى قوى العقل والإدراك والتمييز . وهذه النظرة المادية البحتة التي تبناها ابليس هي النظرة التي لازمته ، وجعلت أساسا لنشاطه في اغراء الإنسان بعد ذلك»(٢)

أقول : وهكذا شأن الماديين جميعا . . جاءتهم رسلهم ببينات الهدى والعلم ، ومع ذلك عارضوها بآرائهم وأصروا على إعراضهم .. ظهرلهم شأن المادة المحدود ، ومع ذلك فلم يعترفوا إلا بقيمتها وأثرها وتمسك الماديون بمنهجهم هذا بل جعلوه قاعدة عامة لأبحاثهم النظرية والتطبيقية ، وبذلك لم ينج الإنسان حينما وضع على مائدة أبحاثهم — من قاعدتهم الماديه ونظرتهم الوضعية ، وأصروا على موقفهم هذا إزاء دراستهم للإنسان ، ولو كان ذلك معارضاً بتجارب العلم ونتائج الأبحاث ، فضلا عن مخالفته لأصول الدين وأسس الإيمان .

نلمس هذا الإصرار حين يقول أحد أشياعهم «ورغم أن الاكتشافات

---

(١) سورة الأعراف : ١١ ، ١٢

(٢) تفسير سورة الأعراف للدكتور / محمد البهي صـ١٦